الترجمة الذاتية للعقاد

للدكتور / عبد الفتاح على عفيفى الأسود
الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد

— ١ —
طبيعة الترجمة الذاتية وصلتها بالأدب

لا يفرق الاصطلاح المعاصر بين كلمتى الترجمة والسيرة فيقال : (فن الترجمة أو السيرة) ، وقد يقيد الاصطلاح فيقال : (فن الترجمة الذاتية) أو (فن السيرة الذاتية) ، ولو رجعنا الى استعمال القدماء لوجدنا أن كلمة السيرة كانت تعنى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بصفة خاصة ، ثم توسعت هذه الكلمة فشملت سيرة معاوية وبنى أمية ، وظلت كلمة السيرة مقصورة الاستعمال على ذلك عصورا،ثم حدث تطور آخر فاستعملت الكلمة بمعنى حياة الشخص بصفة عامة ، وقد قيل سيرة أحمد بن طولون (١) ، وسيرة صلاح الدين (٢) •

أما كلمة الترجمة فقد دخلت الى اللغة العربية عن اللغة الآرامية ، ويبدو أن ياقوت الحموى من أوائل من استعملها فى معجمه بمعنى حياة الشخص ، وكان ذلك فى القرن السابع الهجرى ، ويرجح هذا الظن أن أبا الفرج الأصفهانى لم يستعمل كلمة (ترجمة) فى حديثه عن حياة الشعراء وغيرهم ، وانما كان يقول : خبر ابى قطيفة ونسبه ، أو أخبار بشار بن برد ونسبه (٣) •

---

(١) لابن الداية المتوفى عام ٣٣٤ هـ •
(٢) لابن شداد المتوفى عام ٦٦٢ هـ وانظر فى ذلك كشف الظنون ـ المجلد الثانى ص ١٠١٥ الآستانة وكالة المعارف ١٩٤١م •
(٣) انظر الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث ص ٣١ للدكتور يحيى عبد الدايم •

وجرى الاصطلاح على استعمال كلمة (ترجمة) فى تاريخ الحياة الموجز للفرد على حين استعملت كلمة (سيرة) فى التاريخ المطـــول المفصل لحياة الفرد.، وعلى هذا فالايجاز والاسهاب كانا محك الفـــرق بين الكلمتين عند السابقين .

ثم جاء الاصطلاح الحديث فلم يفرق بينهما بل استخدم احـــدى الكلمتين مرادفة للاخرى .

غير أن المتذوق يميل الى التفرقة بينهما لا من حيث الايجـــاز والاسهاب وانما من حيث مكانة المترجم له ، فالسيرة للنبى صلى الله عليه وسلم ويمكن أن تكون لأصحابه والتابعين له والسائرين على دربه مثل علماء الدين باعتبارهم ورثة الأنبياء فى حمل رسالتهم ونشرها والترغيب فيها ودعمها ، والترجمة لغير هؤلاء مهما كانت أقدارهم .

والترجمة الذاتية تغاير الترجمة الغيرية ، فالأولى يتولى فيهـــا الانسان ترجمة حياته وتفصيل أطوارها وعوامل تحولها ونموها ، والثانية يترجم فيهـــا الكاتب لشخص آخر يتحـــدث عنه ويحلل شخصيته ويستنتج دوافعه الى سلوك معين أو عمل معين .

ولا ريب فى أن الترجمة الذاتية عمل شاق عسير تحفه الصعوبات وتكتنفه المحاذير ، فاذا كانت الحرية متاحة لمن يتحدث عن غيره فان من يتحدث عن نفسه يطلب منه أن يتناول أسرارها ويكشف مخبوءها ، فاذا كان القارىء قد يكتفى بالظن والاستنتاج من حديث الكاتب عن غـــيره فانه لا يقبل هذا الظن ولا ذلك الاستنتاج بل ولا السطحية ممن يتحدث عن نفسه ويترجم لها .

والمترجم لذاته عليه فى الغالب أن يرد الحوادث الى مصـــادرها مفسرا بها حياته ومفسرا اياها بحياته فيربط الداخل بالخارج ، ويربط

الحوادث الخارجية بالأحاسيس والخواطر والأفكار ، ويصـــور ذلك الصراع الذى دار أو يدور فى نفسه وفى داخله .

وللبيئة والوراثة دور كبير فى الترجمة الذاتية اذ ينبغى أن يتحدث عن أثر كل منهما فى حياته وافكاره واتجاهاته .

وغالبا ما يجره تفسير حياته وسلوكه واتجاهاته ومبادئه وافكاره الى الحديث عن عصره وما فيه من أفكار وصراع وقيم .

ويساعد المترجم على ذلك عمق فكره ، ورحابة نفسه ، واتســاع ثقافته ، وابداع خياله ، وشدة تأثره ، وقدرته على التصوير ، وامتلاكه ناصية الكلمة .

ومن هنا فالترجمة الذاتية التى نتحدث عنها عند العقاد هى ترجمة ذاتية أدبية بمعنى أنها عمل أدبى فيه الجمال والتصوير ، وفيه المتعــة والفائدة ، وفيه الحقيقة التى تقترب من الخيال ، هى ترجمة أدبية لأنها ترجمة ذاتية فى الاطار الفكرى ، اذ هى تصور العالم الفكرى للمترجم لذاته ، وتفسر سماته ومقوماته ، وتعكس معاناته فى بناء شــخصيته ، وتمثل فلسفته ، وتوضح بحثه عن الأسلوب الأمثل الذى نقل فيه ماعنده من فكر ورأى ، بل تكشف عن رحلته من عبء هذه المعاناة بعدما وضعها عن كاهله وأفضى بها الى غيره متنفسا الصعداء بعد طول مشقة ومكابدة فى الاحتفاظ بهذه الأسرار .

ان الترجمة الذاتية الفنية عمل أدبى ينقل لنا كاتبها من خلال عرضه محتوى واعيا عن تاريخه الشخصى على نحو موجز ، فيه تدرج زمنى ، وفيه ترابط فنى ، وفيه اتساق فى البناء وفى الروح ، وهذا كله الممتــا يعرض بعبارات عذبة جميلة ، فيها قدرة على بث الحياة والحــــركة والحرارة وتصوير الوقائع والشخصيات ، ولا بأس عليه اذا نشط ذهنه

وخياله فى ربط الأحداث وأجزاء العمل الأدبى الذى يقدمه لقارئه ليتحقق له التماسك والاحكام ، ولينجح فى جذب المتلقى ليشاركه مشاركة وجدانية اذ يرجع هذا المتلقى الى ذاته ويرتد الى حياته ليقيس تجاربه ومشاعره بهذه التجربة التى تصور أمامه ، فالمترجم لذاته انما يعرض علينا مثالا حيا من نفوسنا •

— ٢ —

مقاييس النقد فى التراجم الذاتية

وقبل أن ندرس ترجمة العقاد الذاتية علينا أن نعرض بعض المقاييس الأدبية للترجمة الذاتية لنقيس عليها عمله الذى ترجم فيه لذاته •

وأول هذه المقاييس أن يكون الكاتب أمينا وصادقا وصريحا فيما يفضى به الى القارىء من أسرار حياته الشخصية وحياته الفنية ، ولكى يتحقق له الصدق والأمانة والصراحة عليه أن يحكم على نفسه فى موضوعية وتجرد ، عليه أن يقدم لنا ماضيه بنقائضه وفضائله ، وأن يعرض حياته بعيوبها ومآثرها ، وأن يكشف عن سلوكه بزلاته وحسناته، عليه ألا يقع فيما وقع فيه غيره من بعض من ترجموا لذواتهم حين صوروا أنفسهم منزهة عن الأخطاء بعيدة عن الزلات معصومة من العثرات ، مجدوا ذواتهم وتعاطفوا معها ودافعوا عنها وبرروا ما وجه اليهم وأبرزوا مزاياهم فى تعال وكبرياء ، فى الوقت الذى تحدثوا فيه عن عيوب غيرهم وغضوا من أقدارهم ، وهؤلاء فى الحقيقة لا يقدمون ترجمة ذاتية ، وانما يقدمون ترجمة للمثل الأعلى للانسان فى مثله وقيمه وفضائله وشرفه ، وهذا المثل الأعلى بعيد عن دنيا الواقع الحافلة بالنقائص والأخطاء ، والمعصوم من عصمه الله تعالى ، وهو سبحانه لم يعصم الا الأنبياء عليهم السلام •

وثانى هذه المقاييس أن يكون كاتب الترجمة الذاتية واضحا ، والوضوح هنا هو وضوح الغاية من الترجمة الذاتية ، فينبغى أن يفصح الكاتب عن غايته ، ويكشف عن هدفه من عمله الأدبى ، وهذا الوضوح يتطلب أن يعنى هذا الكاتب ببعض التواريخ ليتسنى له التسلسل التاريخى والتدرج الزمنى فيحقق من وراء ذلك التطور الذى ألم به فى حياته ، ويحقق أيضا البناء الفنى لعمله الذى يقدمه للقارىء •

كما يتطلب الوضوح أيضا ألا يتوارى الكاتب وراء ضمير الغائب وبخاصة اذا ما اختار الأسلوب الروائى حتى لا يختلط الأمر على القارىء ، ولقد كان من عيوب طه حسين فى ترجمته أنه اختار ضمير الغائب فى كتاب الأيام ، وكان الأمر أكثر غموضا حينما قدم جزءا من حياته فى كتاب (أديب) ، ولولا أن معاصريه يعلمون تماما أنه يتحدث عن نفسه ، وأنه يصور حياته ، ولولا بعض الاشارات فى أخر كل من الجزء الأول والثانى من الأيام لاختلط الأمر عليهم •

وثالث هذه المقاييس أن يصور المترجم لذاته الحياة من حوله تصويرا موجزا لكنه ينبغى أن يكون كافيا لربط أحداث الحياة بنفسه ، وربط نفسه بأحداث الحياة ، وهو حينما يفعل ذلك انما يربط بين داخل نفسه وخارجها ، والهدف من تصوير الحياة من حوله أن يبين مدى تاثره بالحياة ومدى تأثر المجتمع من حوله بأفكاره وايجابياته ، ولهذا صلة قوية بأمانته ، فالأمانة تقتضى منه أن يبين كيف انتفع بغيره وبمجتمعه فى بعض الاتجاهات ، وكيف تحولت حياته من طريق الى طريق بسبب فرد أو جماعة ، وكيف تولدت ايجابياته ونمت اتجاهاته بسبب هذا المجتمع فى جانب من جوانبه •

ولا بأس عليه فى ذلك استكمالا للصورة ، وايفاء للموضوعية والأمانة ، أن يذكر ما له أيضا من أثر فى غيره ، وهل حركت آراؤه فردا

أو جماعة ؟ وهل أحيت مبدأ ؟ ، وهل غيرت اتجاها ، وهل تابعه غـــيره فسارروا فى طريقه وتابعوه فى ايجابياته ؟.

لا بد أن يذكر ما له وما عليه ، ما عليه للمجتمع وما له على المجتمع، وما هو فى الحقيقة الا جزء من المجتمع يؤثر فيه ويتأثر به ، وهذا هو الهدف من تصوير الحياة من حوله ، ولا ينبغى أن يكون تصوير الحياة هدفا وغاية فيفسح المجال ل البيان والشرح ، بل ينبغى أن يذكر من الحياة ما له به صلة قوية تأثرا وتأثيرا فحسب .

ورابع هذه المقاييس أن يقدم المترجم لذاته خبراته النافعة للقارىء فكل موقف فى حياته لابد أن يسوقه ليبرز منه السر فى تمسكه به والدفاع عنه ، وكل سلوك لابد أن يعترف بأنه نافع أو ضار ، وكل حـدث ينبغى أن يبين الأم أدى وعلام انتهى ؟

ولا ريب فى أن هذه خبرات تحققت للكاتب ، وهو انما يســـوقها من أجل القارىء الذى يريد له أن ينتفع بها ، وأن يعرف وجه الصواب فيها وباب الفائدة منها .

ولكن ينبغى أن يحذر الكاتب من أسلوب الوعظ المبـاشر ، فالوعظ المباشر يؤدى الى السأم والملل والضجر والانصراف عن النصيحة ، أما النصيحة التى يستنتجها القارىء بنفسه ويستشفها بعقله ويصل اليهـا بادراكه من خلال الأحداث والمواقف التى يسوقها الكاتب فهى الباقية الخالدة ، وهى النافعة المجدية ، وهى التى يحرص عليها ولا ينأى عنهـا ولا يسأم منها القارىء .

وعليه أيضا وهو يذكر خبراته أن ينأى عن الاستطراد الذى يقطع حبل السلاسة ويعيب الانسياب الفنى .

هذه هى أهم السمات الفنية التى تؤدى الى نجـاح المترجم لذاته والاقبال على الترجمة الذاتية الأدبيه ، وهى ايضا اهم المقاييس التى تقاس عليها الترجمة الذاتية الأدبية حين يراد تقويمها والحكم لهـا بالنجاح أو عليها بالفشل .

ومن الأمور التى ينبغى أن نضعها فى الحسبان ونحن نقـوم الترجمة الذاتية معرفة القالب الذى اختاره الأديب المترجم لذاته .

والقوالب أربعة : أولها القالب الروائى الذى يصوغ الأديب فيه حياتهمفصحا عن هدفه الذى يصور الحياة فى شكل روائى دون الغاز ، ودون محاولة للتخفى خلف بطل هذه الرواية ، ودون ابتعاد عن الحقائق التاريخية وحقيقة الحياة الشخصية الخاصة ، وليس هذا القالب قصـة بالمعنى الفنى للقصة ، وانما يأخذ جانب القص فقط دون التزام بتصعيد الأحداث وتعقيدها ثم حلها كما هو معروف فى القصة ، وفى هذا القالب يظهر الكاتب نفسه ، ويتحدث عنها بضمير المتكلم ، مصرحا بغاياته من هذا العمل الفنى .

وثانى هذه القوالب روائى أيضا غير أنه رواية فنية تراعى فيهـا قيم الرواية وأصولها على أن حوادثها ليست من الخيال ، وانما تعتمد فى حوادثها على حياة الكاتب الخاصة وعلى واقعه الشخصى .

وثالث هذه القوالب هو ما يعمد فيه الكاتب الى أسلوب المقـالة النثرية مستعينا بتقرير الحقائق أو شرحها وتفسيرها وتحليلها عامدا الى تسجيلها فى كثير من الأحيان فى صورة تقريرية دون أن يصرف عنـايته ويوجه اهتمامه بتصوير الحقائق والمواقف والشخصيات .

ورابع هذه القوالب هو القالب الوسط بين أسلوب التصـوير الذى تتميز به الرواية ، والأسلوب التفسيرى التقريرى التحليلى الذى تعتمد عليه المقالة النثرية (١) .

---

(١) انظر فى هذه القوالب ص ٨٢ من المرجع السابق .

— ٣ —

كتاب ' أنا ' للعقاد

واذ قد غرغنا من التعريف بالترجمة الذاتية الأدبية وبيان طبيعتها ومعرفة مقاييس نقدها وقوالبها ينبغى أن نتحدث عن الترجمة الذاتية الأدبية عند الأستاذ عباس محمود العقاد .

وللعقاد كتاب بعنوان (أنا) يقع فى تسعة فصول ، تحدث فى الأول منه عن نفسه وأبيه وأمه وبلدته وطفولته وذكرياته عن العيد ، وفى الفصل الثانى تكلم عن أساتذته والأشياء التى جعلته كاتبا مبينا السر فى هجره وظائف الحكومة ، وفى الفصل الثالث تحدث عن هوايته القراءة والكتب المفضلة عنده ، كما تحدث عن منهجه فى كتابة المقالات ومنهجه فى تأليف الكتب ، وأفصح عما لم يكتبه وما يريد أن يكتب ، وعالج فى الفصل الرابع كيف عرف نفسه وكيف عرف طريق النجاح وكيف تعلم من أوقات الفراغ معترفا بجديته مقررا أنه كان شيخا فى شبابه ، وفى الفصل الخامس تحدث عن أصدقائه وأعدائه وتعلقه بالأطفال وأحواله النفسية فى السجن وخواطره عن الصحة والمرض ، وفى الفصل السادس تكلم عن فلسفته فى الحب وفلسفته فى الحياة وعن ايمانه ، وفى الفصل السابع قرر أنه طاف العالم من مكانه عن طريق الاطلاع ، وخصص الفصل الثامن لاحساسه بعد الأربعين وبعد الخمسين وبعد الستين وبعد السبعين ، وسجل كثيرا من اعترافاته ، وجعل الفصل التاسع والأخير لمكتبته وكتبه وبيته فى حوار تخيله معصديق له متعمقا متأملا متفلسفا .

والكتاب فى واقعه مجموعة من المقالات التى نشرها العقاد فى مجلة الهلال وبعض المجلات الأخرى ، وقد جمعها الأستاذ طاهر الطناحى الذى كان يتولى تحرير مجلة الهلال قبيل وفاة العقاد وبموافقة منه ليجعلها فى كتاب ، غير أن المنية عاجلت العقاد قبل نشر الكتاب فرأى الأستاذ

طاهر الطناحى وفاء لنابغتنا الكبير ولتاريخ الأدب أن ينشر هذا الكتاب مختارا له عنوان (أنا) .

ويقول الأستاذ طاهر الطناحى فى تسمية الكتاب : (وانى أرى ويرى القراء معى ان هذا العنوان أصدق عنوان على فصول هذا الكتاب التى تتناول الجانب الشخصى والنفسى من حياته ، ولو كان العقاد حيا لما رفض هذا العنوان ، فقد كان رحمه الله يترك لى عنوان بعض مقالاته التى ينشرها فى مجلة الهلال واسماء بعض كتبه التى نشرتها سلسلة كتاب الهلال ثقة منه بأنى أختار الاسم المناسب) (١)

ولعل الأستاذ الطناحى استوحى هذا العنوان ــ بالاضافة الى مطابقته فصول الكتاب بصدق ــ من قول العقاد حينما اقترح عليه الطناحى أن يكتب كتابا عن حياته فى سنة ١٩٤٦م : (ولعلى أبدأ بالجانب الأول الذى هو (أنا) لأنه أقرب الى الكتابة ، وبخاصة وأنا فى نهاية الحلقة السادسة من عمرى فسواء عشت الى السبعين أم الثمانين أم المائة ، فان عدد الشهور والأعوام لا يغير منه شيئا) (٢) .

والجانب الثانى هو ما جمع تحت عنوان (حياة قلم) ، وكان العقاد يريد أن يجعل الجانبين : (أنا) و (حياة قلم) كتابا واحدا عنوانه (عنى) (٣) .

وعلى هذا فعنوان الكتاب وان لم يضعه العقاد فانه منطبق على فصوله فضلا عن أنه أشار الى هذا العنوان كما ذكرت .

---

(١) ص ٧ من كتاب (أنا) دار المعارف ١٩٨٢ م .
(٢) ص ٦ من السابق .
(٣) انظر السابق والصفحة .

والكتاب رحلة طويلة مع الحياة والقلم والأصدقاء ، وقد بدأ العقاد هذه الرحلة من بلدته أسوان حيث قضى طفولته وعرف بعض أساتذة وتعلق بالكتاب والقلم فكرا وأسلوبا ، ومر على ممارساته مع الناس والعمل والصحافة والأدب والفلسفة ، وهذه الترجمة لها طابع جديد في كتابة التراجم ، كتابة ـ كما يقول الطناحي : (ليست شخصية بحتة ولا سردا لأحداث مرت به ، أو عاش فيها وكان له دور من أدوارها فحسب ، بل هي كتابة باحث عالم ، وفنان نابغ تعود النظر في مسائل العلم وقضايا الفن والفكر ، وجال في شئون الفلسفة وعلم النفس والأدب والتربية والاجتماع ، وتمرس بتجارب الحياة ، ومارس حلوها ومرها ، وخرج منها بخبرة العالم ، وعبرة المفكر وحكمة الفيلسوف .

فاذا كتب عن نفسه تناول ألوانا من المعرفة ، وعالج أنواعا من التفكير ، وتعقب كل حادث أو شأن من الشئون بالتعقيب العلمي ، أو التعليل النفسي ، أو التأمل الفلسفي) (١)

ـ ٤ ـ

القالب الذي اختاره العقاد لترجمته الذاتية

وكتاب (أنا) لا ينتمي الى القالبين الروائيين اللذين أشرت اليهما من قبل ، ولا ينتمي الى القالب الذي يمثل الوسط بين أسلوب التصوير الذي تتميز به الرواية ، والأسلوب التفسيري التقريري التحليلي الذي تعتمد عليه المقالة النثرية .

وانما ينتمي كتاب (أنا) الى القالب الذي يعمد فيه الكاتب الى أسلوب المقالة النثرية مستعينا بتقرير الحقائق وشرحها وتفسيرها وتقديمها الى القارىء واضحة جلية دون أن يستعين ـ في الغالب الأعم بالتصوير الروائي .

---

(١) ص ٥ وما بعدها من السابق .

ولا عجب فى ذلك فالكتاب مجموعة من المقـــالات النثرية نشرها العقاد فى مجلة الهلال وغيرها من المجلات التى مازالت تصدر للآن أو التى احتجبت عن الصدور ، وهذه المقالات النثرية انما يجمعها خيط واحـد هو الحديث عن العقاد : حياته وفكره وفلسفته وذكـرياته واعترافاته ومكتبته وآرائه فى الناس واتجاهاتهم وسلوكهم ونفوسهم •

وهذا نموذج صغير من كلام العقاد فى هذا الكتاب يتجلى فيـــه القالب الذى اختاره لترجمته الذاتية ، يقول عن طريقته فى الكتـابة : (أما طريقتى فى الكتابة ، فانى أبدأ المقال وفى ذهنى جميـع أصـوله و « نقطه » مرتبة على الجملة حسب التسـلسل المنطقى ، ولكنى اذا مضيت فى الكتابة عرضت لى حاشية من هنا ، أو لمحة من هناك ، تطـرأ فى عرض الكلام ولا تغير شيئا من جوهر المقال الا أن تزيده جـــلاء فى بعض الأحيان أو تضيف اليه عنصر الفكاهة والتبسيط •

وأكتب فى كل مكان خلا من الضوضاء • أما اذا لم تقيدنى الضرورة بمكان معين فأكثر ما أكتب وأنا مضـطجع على الفـراش وثلاثة أرباع مقالاتى السياسية كتبت كذلك ، هذا فى النثر أما فى الشـعر فيغلب أن أنظمه وأنا أتمشى أو سير فى الخلاء •

ويهمنى كثيرا أن أعود الى كلامى قبل الطبع لأصـحه وأراه فى صورته الأخيرة ، الا أن يعوقنى عن ذلك عائق •••• ومتى نظرت فيه قبل تسليمه الى المطبعة فقد أحذف وأزيد عليه ويندر جـــدا أن يمس الحذف أو الزيادة جوهر الموضوع •

واذا شطبت على الكلمة أثناء الكتابة عنيت بأن أطمسها طمسا تاما كأننى لا أريد أن تتراءى لنظرى بعد ذلك،ويكثر الشطب اذا كنت مشغول الذهن منحرف المزاج ، ويقل اذا أقبلت على العمل بنفس راضية وجسم

مستريح ، أما زمان الكتابة فشرطى الوحيد فيه ألا يكون بعد تنـاول الطعـام •

وخطتى فى المناقشة أن أعمد الى أقوى الحجج بداءة فأجتهـد فى تقويضها ثم أقفوها بأضعف الحجج ، وقد أعود الى ما فيه مساك من القوة ، وربما كانت فى هذه الخطة مفاجأة للقارىء ولكنها مفاجأة لا تخلو ـ كما شاهدت بالتجربة ـ من تأثيرها المحمود •

وأفضل الكتابة منفردا لا يحيط بى أحد ، ولم أكتب قط فى الأدب خاصة ومعى آخر فى الحجرة ، الا أن أملى عليه ما أقول ، وهو جد نادر • ولم أتعود أن أستعين بشىء من المنبهات التى يألفها بعض الكتاب أثناء العمل كالتدخين وشرب القهوة وما اليها ، حتى أيام كنت أدخن •• بل لقد كنت يومئذ أترك التدخين حين أشرع فى الكتابة) (١)

وواضح من هذا النموذج أن العقاد لا يتخذ القـالب الروائى بنوعيه مجالا لترجمته الذاتية ، وانما يتخذ أسلوب المقالة النثرية ، وهو أسلوب يجنح فيه العقاد الى سرد الحقائق ومحاولة جعلها شـاملة مستقصية ، فهو يبدأ المقال وفى ذهنه جميع أصوله ونقـاطه مرتبة ، ولا مانع عنده اذا مضى فى الكتابة أن يضيف حاشية أو لمحة لا تغير من جوهر الكلام بل تزيده وضوحا وجمالا •

وهو يراجع كلامه قبل الطبع ليصححه وقد يحذف أو يزيد لكـن الزيادة أو الحذف غالبا لا يمسان جوهر الموضوع •

ويعترف العقاد بأنه مجادل عنيد وخطته فى المناقشة هى أن يعمد الى أقوى الحجج فيفندها ثم الى أضعفها •

---

(١) ص ٨٧ وما بعدها من السابق

وهكذا فالعقاد يحيط بالموضوع أو بجزئية منه فيوسعهما استقصاء واحاطة مقتصلا قالب المقالة النثرية كما ذكرنا •

وعلينا الان أن نمضى فى نقد ترجمته الذاتية الأدبية بنـــاء على المقاييس الأربعة التى تعد أهم سمات الترجمة الذاتية •

— ٥ —

اعترافات العقـــاد

وأول هذه السمات أو المقاييس أن يحكى لنا الكاتب بأمانة وصدق وصراحة اعترافاته عن الماضى ، فهل التزم العقـــاد بتلك الأمانة وذلك الصدق وهذه الصراحة ؟

يقول العقاد عن نفسه : (هو رجل مفرط فى التواضع ، ورجـل مفرط فى الرحمة واللين ، ورجـل لا يعيش بين الكتب الا لأنه يبـاشر الحياة ، رجل لا يفلت لحظة واحدة فى ليله ونهاره من سـلطان القلـب والعاطفة ، ورجل وسع شدقيه من الضحك ما يملأ مسرحا من مسـارح الفكاهة فى روايات شارلى شابلن جميعا) (١) ثم يقول : (ولا أقـول ان هذا الرجل هو عباس العقاد بالضبط والتحقيق ، ولكنى أقول : انهم لو وصفوه بهذه الصفة لكانوا أقرب جدا الى الصواب) (٢) •

ويقول أيضا : (أنى لا أزعم أنى مفرط فى التواضع ، ولكننى أعلم علم اليقين أننى لم أعامل انسانا قط معاملة صغير أو حقير ، الا أن يكون ذلك جزاء له على سوء أدب) (٣) •

ويقول أيضا : (وأنا لا أزعم أننى مفرط فى الرقة واللين ، ولكننى أعلم علم اليقين أننى أجازف بحياتى ولا أصبر على منظر مؤلم أو على شكاية ضعيف) (٤) •

---

(١) و (٢) ص ٢٠ من المرجع السابق
(٣) و (٤) ص ٢١ من السابق

ونحن نسجل هنا أن العقاد قد تناقض مع نفسه حينمـــا قال انه مفرط فى التواضع ثم قال بعد ذلك انه لا يزعم ذلك ، وقد تناقض أيضا مع نفسه حينما جعل نفسه مفرطا فى الرحمة واللين ثم قال بعد ذلك انه لا يزعم ذلك ، ولا ريب فى أن التناقض ينافى الصدق ، وربما كان قوله : (انهم لو وصفوه بهذه الصفة لكانوا أقرب جدا الى الصواب) أكثر دقة .

واذا ما تجاوزنا عن هذا التناقض واعتبرنا ذلك من باب عـــدم الدقة لا من باب الكذب فاننا قد نسلم له بالرقة واللين ، ونشـــك فى تواضعه الذى ادعاه لنفسه فالمعروف عن العقاد أنه حساس فى هـــذه الناحية ، وهو نفسه يعترف بأن ذلك الحكم وهو عدم معاملة الآخرين على أنهم صغار حقراء مستثنى منه من ساء أدبه بل أنه يعترف بأن الله فطره على التحدى ، والتحدى ينافى التواضع ، ومعاملة الصغير على أنه صغير قد ينافى التواضع وينافى اللين ، واللين والتواضع يوجبـــان أن يحلم الانسان على المخطىء فيسامحه أو ينصحه ويعلمه لا يتحـــداه ولا يعامله على أنه صغير حقير منذ البداية .

هل كان العقاد صادقا أمينا حينما وصف نفسه بأنه مفـــرط فى التواضع واللين ؟ كلا لأنه بالغ فى هذا الوصف كثيرا .

لكن العقاد عذر الناس فى اتهامهم اياه بالغطرسة والكبرياء فقـدم لنا سببين جعلا الناس يعتقدون ذلك ، والسبب الأول أنه لم يخضع لذوى المال والسلطان ومن سماهم بالأصنام فغضبوا عليه وانتقل الغضب الى عباد الأصنام ــ وهذا شىء عجيب ، ثم انتقل الغضب الى الحانقين على الأصنام ، وهذا أعجب .

والسبب الثانى أن العقاد مفطور على العزلة والانطواء على النفس فى أحسن الأحوال وأسوئها •

والتفسير الأول يؤكد أنه متكبر على الأصنام ، أما التفسير الثانى فتفسير معقول لكن الناس معذورون ــ كما قال ــ فى شبهة الكبرياء •

على أن التفسير الثانى يعد اعترافا ثانيا ، وأعتقد أنه صادق وأمين فى نقله الينا ، بل لقد أرجع هذا الانطواء الى ثلاثة عوامل هى :

الوراثة والطفولة وتجارب الحياة •

فأبواه كانا يحبان المعزلة وقد ورث العزلة والانطواء على النفس منهمـــا •

والوباء قد اجتاح مدينة أسوان وهو دون السابعة من عمره وأقفرت المدينة شيئا فشيئا من سكانها ، اذ مات كثيرون ، ورحل عنها كثيرون ، وخلا الشارع الذى يقيم فيه العقاد وأسرته فأغلقت الحـكومة بوابته ولطختها بالعلامة الحمراء التى تعنى أن الوباء قد زار أهله ، فالنـاس يتساقطون والأطفال لا يخرجون ، والصورة لا ينساها العقاد قائلا : (واليها ولا شك يرجع شىء من هذه الوحشة التى تحبب الى الخـــلوة والانفراد) (١) •

أما تجارب الحياة التى يرجع اليها انطواء العقاد فخلاصتها عنده أن العواطف المزيفة أروج فى هذه الدنيا من العواطف الصحيحة ، فلا أسف اذن على رأى الناس فى الناس ، ولا اعتداد اذن بما يقـال ومن يقـــول (٢) •

---

(١) ص ٢٥ من السابق •
(٢) انظر السابق والصفحة •

ومما له صلة بالتكبر ما اعترف به العقاد من أنه لا يعرف التوسط فى الصداقة ولا فى العداوة ، فليس هناك انسان نصفه صديق ونصفه عدو ، ويقرر العقاد بأن العدو بهذا المعنى لاتهمه عداوته اذا احتفظ بها لنفسه ، أما اذا تعقبه بها فهى الحرب التى لا توسط فيها أيضا ، أو الاحتقار (١) .

ولا ريب فى أن الاحتقار ضرب من التكبر ، أما الحرب فهى الوجه السافر للعداوة ، وهذا الاعتراف فيه صدق وأمانة وصراحة لكنه قد يهدم ما نفاه العقاد عن نفسه من أنه متواضع لين .

ومما له صلة بالتكبر أيضا ما اعترف به العقاد من أن الظنون عنده قوية السلطان ، وعلة ذلك عنده « معالجة التفكير المنطقى فى كل شيء ، فليس أسهل فى المنطق من فتح أبواب الاحتمالات ، أما اغلاقها أو الجزم بنفيها فلا يكن الا ببرهان قاطع ، والبراهين القاطعة قليل » (٢) .

ولا شك فى أن قوة سلطان الظنون تفتح عليه باب عداوة الناس أو على الأقل اعتزالهم والبعد عنهم أو احتقارهم ، ولهذا كله صلة واضحة بالتكبر لأنها من مظاهره .

وهذا اعتراف صريح وصادق وأمين لكنه يدعم ما قلته آنفا من أن شبهة التكبر قوية فيه مهما نفاها أو حاول ابعادها والتبرؤ منها ، والقسم بكل ما يقسم به الرجل الشريف « ان عباس العقاد هذا رجل لا أعرفه ولا رأيته ولا عشت معه لحظة واحدة ، ولا التقيت به فى طريق ... ونقيض ذلك هو الأقرب الى الصواب » (٣) .

---

(١) انظر ص ٢٦ من السابق .
(٢) ص ٢٦ من السابق .
(٣) ص ٢٠ من السابق .

ومن اعترافات العقاد أنه اذا عومل بالتسامح لا يبدأ أبدا بالعدوان فاذا هاجمه أحد فلا يرحمه (١) .

وعدم الرحمة له دلالة على بعض صفات العقاد وهو الاعتداد الشديد بنفسه فمن يبدؤه بالعدوان لا يرحم ، ولا شك فى أن اعتراف العقاد هنا ذو شقين : الشق الأول عدم البدء بالعدوان اذا عومل بالتسامح ، والشق الثانى شن الحرب الضارية على من يبدأ بالعدوان، وشقا الاعتراف يتسمان بالصراحة والصدق غير أن الشق الثانى يدل على الاعتزاز الشديد ، والاعتزاز الشديد بالنفس يدل على تكبرها عن أن تجارب ، والتكبر هذا نقيض اللين الذى يبالغ فيه فيقول : انه مفرط فى الرحمة واللين ، ولو كان العقاد لينا رحيما ما تصدى بهذا العنف لمن يظهر له طرف السلاح فقط فيقاتله حتى يقتله أو يقتل شهيد الاعتزاز الشديد بالنفس ، ولو سلك العقاد سبيلا آخر هو مقابلة السيئة بالحسنة فعفا وصفح لكان أقرب الى السلم ، ولكان أقرب الى ما دعا اليه الاسلام الحنيف .

ويعترف العقاد بأنه واحد من المنطوين الذين لا يألفون الناس بسهولة (٢) ، غير أنه ينبه على أمرين فى هذا المجال أولهما أنه خان من العقد النفسية الشائعة بين كثير من أنداده فى السن وشركائه فى العمل والزمن (٣) ، ويقول فى ذلك : « فليس كل انطواء كبتا للنفس أو كتمانا لسر من الأسرار الخفية ، وهناك فارق كبير بين السكوت خشية من الكلام ، والسكوت لأنك لا ترى حاجة الى الكلام ، فاذا سكت الانسان خاشيا فهناك عقدة نفسية ، واذا سكت الانسان لأنه لا يشعر بالحاجة

---

(١) انظر ص ٢٧ من السابق .
(٢) ص ١٩٦ من السابق .
(٣) ص ١٩٥ من السابق .

الى الافضاء والتصريح فلا عقدة هناك ولا كتمان » (١) • وثانيهما أن الألفة اذا انعقدت بينه وبين أحد من الاخوان فانها لا تنقطـــع ولا تتعرض للقطيعة باختياره ، بل قد تتعدى الألفة الاخوان الى غـيرهم من الأحياء والأشياء (٢) •

ولا شك فى أن هذا الاعتراف صادق وصريح وفيه تحليل وشمول، غير أننا نشم منه رائحة الدفاع وكأنه استشعر اتهام الناس له بنـاء على انطوائه بأنه معقد نفسيا •

والواقع أن الاعترافات لا ينبغى أن تكون مقصورة على العيـوب والخطايا والزلات ، بل هى شاملة لها وللمحاسن والحسنات والميزات• والمقبول فى الاعترافات أن تكون صادقة أمينة صريحة ســـواء أكانت حسنات أو سيئات ، وتبرير السيئات والخطـــايا والدفاع عن السلوك الماضى مما يفسد الاعترافات وينأى بها عن الصـــدق والأمانة والصراحة • ودفاع العقاد فى نفسه له جانب تحليلى رائع ، وفيه جانب آخر قد يشم منه القارىء دفاعا وتبريرا ، وكان يكفى العقاد أن يقول: انه ورث الانطواء عن أبويه ، واعتاده من طفولته ، ووصل اليه بفلسفته عن الناس • كما ذكرنا له من قبل •

ويعترف العقاد بالعناد والتشبث بما يقول وبما يعمل ، ويبـــالغ العقاد فيجعل هذا العناد وذلك التشبث بالرأى عنادا لنفسه هو ، وليس العناد مقصرا على الناس ، فهو فى المواقف الحاسمة يملى عـــلى نفسه شروطا كشروطالقائد الذى لا يرحم « العدو أمامك ، والبحر وراءك •• وافعلى ما تشاءين » (٣) •

---

(١) ص ١٩٥ من السابق
(٢) ص ١٩٦ من السابق
(٣) ص ١٩٧ من السابق •

ومن مظاهر عناده مع نفسه أنه أحيانا يحتال عليها لينفذ ما يريد وليقنعها بما يفعل كأنها شخص آخر،ويعترف بأن ذلك السبيل انما هو ضعف ارادة أحيانا ، والدليل على هذا الضعف أنه يطلع نفسه على بعض مراده ويخفى عنها بعضه « فاذا اعتزمت الاقلاع عن التدخين مثلا قلت لنفسى : اتركيه أسبوعا وانظرى ماذا يكون بعد أسبوع ، أقول لها هذا وأنا أنوى أن أتركه فلا أقطع بهذا الترك دفعة واحدة،ثم أعود بعد أسبوع فأقول لها شيا تقدرين لعى تركه أسبوعا لا حاجة الى احتماله على مضض ، ولا حكمة فى العودة اليه » (١) •

وهذا الاعتراف صادق وأمين وصريح ، ويتسم بالتحليل الدقيق والتفسير الكاشف •

ويعترف العقاد بأنه من الزاهدين فى البذخ والحطام ، ولكنه يعترف أيضا بأنه زهد لا فضل له فيه ، لأنه يكلفه مشقة المغالبة والمقاومة ، فليس فى النفس هوى يغالبه ويقاومه ، وانما يلوذ فى هذه العصمة بسند واحد : هو سهولة احتقاره للباذخين ومن ينظر اليهم نظرة الاكبار والاعجاب (٢) •

والعقاد هنا لا يعترف بالزهد فى البذخ وحطام الدنيا فقط ، وانما يصوره صراعا بين البذخ والزهد فى نفسه ، هذا الصراع الذى ينتصر فيه الزهد بحجة عقلية ، تلك الحجة هى سهولة احتقاره للباذخين ولمن يكبرهم ويعجب بهم ويقدرهم وهم لا يستحقون شيئا من هذا •

والاعتراف هنا جاء صادقا وأمينا وصريحا ، وبخاصة ما نراه من

---

(١) ص ١٩٧ من السابق •
(٢) السابق والصفحة •

إعترافه بهذا الصراع الداخلي بين الزهد والبذخ ، وان كان النصر في النهـــاية للزهد •

ويعترف العقاد بأن عنان النفيس يفلت من يده في حالات كثيرة ، لكنه يقول انها حالات يراجعها أحيانا فلا يأسف بعد المراجعة لافلات عنان النفس من يده ، بل يرى أن ضرر الاطلاق أخف من ضرر الشـــد والكظم وثنى العنان (١) •

والجزء الأول من الاعتراف جاء صريحا صادقا أمينا ، أما الجـــزء الثانى فربما ألحق بالجزء الأول شيئا من الفساد ، لأنه تبرير لافـــلات عنان النفس ، والعقاد بهذا قد حول الاعتراف من شيء غير مرغوب فيه الى شيء لا بأس به ، ولم يقل أحد ان افلات عنان النفس شيء لا بأس به ، فالشديد من يملك نفسه عند الغضب ، أما قوله : « بل أرى أن ضرر الاطلاق أخف من ضرر الشد والكظم وثنى العنان » فاننا نتساءل عـــلى من يكون ضرر الاطلاق أخف من ضرر الشد ؟ أعلى النفس أم عـــلى غيرها من الناس ؟ لا ريب في أن العقاد يقصد بأخفية الضرر نفســـه ، وليذهب من يصب عليه جام غضبه الى الجحيم ، وان كان الأمر كذلك فهى الأثرة وحب الذات ، ولست أتصور هنا أن تكون أخفيـــة الضرر على من غضب عليهم ، ولا أخال أحدا يتصور ذلك •

ثم ان العقاد في هذا الاعتراف لم يوضح ولم يذكر شـــيئا من مواقفه ، ولو ذكر شيئا من ذلك لجعل القارىء يشعر بشيء من الراحة الفكرية سواء أكان معه أم كان ضده •

---

(١) السابق والصفحة •

ويعترف العقاد بأنه يحب الشهرة والخلود ، لكنه لا يطلبهما بثمن يهيض من كرامته ، ويقرر بأنه اذا أحس أن انسانا يمتن عليه بشهادة يبذلها أو يمنعها فلا نصيب له عنده غير التحدى الذى يذهب به الى الحائط ... ولتذهب الشهرة ، وليذهب الخلود معها الى الشيطان .. (١) .

أما اعترافه بالشهرة والخلود فاعتراف يحمد له لأنه يعبر به عن صدق رغبته فى الشهرة والخلود ، والخلود انما يصاحبه الثناء هنا ، وحب الثناء طبيعة الانسان .

وأما حديثه عن الكرامة التى قد تتعارض مع الشهرة بمعنى أن الشهرة قد لا تأتى الا بثمن يهيض من كرامته ــ فحديث يعتز به كل انسان يشعر بآدميته ويعتز بكيانه ، وليس فى الحياة ما يعدل الكرامة.

غير أننا نلاحظ على العقاد عنفه فى التعبير ، فالانسان الذى يشهد له لتتحقق له الشهرة ويتسنى له الخلود ، أو يحجب هذه الشهادة من أجلهما له دور فى هذه الشهرة وذلك الخلود ، ونحن مع العقاد فى رفضه المن لأنه أذى يصيب النفس فى الصميم ، لكننا لا نساير العقاد فى قوله : « فلا نصيب له عندى غير التحدى الذى يذهب به الى الحائط ... ولتذهب الشهرة ، وليذهب الخلود معها الى الشيطان » فالتحدى والحائط والشيطان كلمات عنيفة تدل على نفس العقاد العنيفة ، وكان أولى له أن يرفض هذا المن ولو أتى له بالشهرة والخلود متبعا ذلك بكلام هادى ونصيحة مخلصة .

ويعترف العقاد قائلا : « اننا نحب أن نسمع الأنبياء وهم يخطبون ، والأباطل وهم يناضلون ، والشعراء وهم ينشدون ، وأصحاب الأغانى

---

(١) السابق والصفحة

وهم يترنمون .. ولكن من من هؤلاء الأبطال يرضى أن تسمعه وهو فى خاصة وقته بين أهله أو ندمائه ؟ ومن من الناس فى عصرنا يحب أن تنقل عنه كل كلمة قالها ، وكل سر همس به ، وكل آهة من آهات الضعف فارقت شفتيه ؟... ان الاستعاذة بالله هنا تحتـــاج الى مائة لسان اذا كان اترحيب يكفيه لسان واحد » (١) .

وهنا الاعتراف واضح وصريح فى أن المترجم لذاته ليس مطلوبا منه أن يقول كل ما عنده من عام وخاص ، ومن حسن وقبيح ، وانمـــا المقياس فى الاعتراف ينبغى أن يكون تفســـير المواقف ونشر ما ينفع القارىء ، سواء ما حدث من الكاتب وكان التوفيق حليفه أم كان التوفيق قد خانه ، المهم أن يقدم الخبرات النافعة من خلال اعتـــرافاته ، وأن يصور الحياة من حوله مع ربطها بداخله ، وأن يكون فى ذلك كله بعيـــدا عن التزييف وقلب الحقائق .

ومن هذا فنحن لا نطالب العقاد ــ ولا غيره ممن يترجمـــــون لأنفسهم ــ أن يفضى الينا بخاصة وقته بين أهله أو ندمائه ، وأن ينقل الينا كل سر همس به وكل آهة ضعف فارقت شفتيه ، ولا شـــك فى أن هذا اعتراف بأن هناك أشياء عند العقاد لم يشأ أن يقولها ، ولا ريب فى أنها أشياء لا تنفع القارىء ولا تهمه ، وليس لها دخل كبير فى تفسير حياته ، والكشف عن مخبوء نفسه ، وليس فى ذكرها كبير جدوى للقارىء لأنها تنأى عن الخبرة النافعة .

وللعقاد اعترافات كثيرة ، فقد اعترف بأنه لن يتحدث عن عباس العقاد كما خلقه الله ، فالله هو الأولى بأن يسأل عن ذلك ، ولن يتحـــدث عن عباس العقاد كما يراه الناس ، فالناس هم المسئولون عن ذلك ولكنه

---

(١) ص ٢٤٨ من السابق .

سيتحدث عن عباس العقاد كما يراه هو ، وقد وضح أن العقاد كما يراه هو يختلف كل الاختلاف عن العقاد الذى يراه الكثيرون من الأصـدقاء والأعـــداء (١) •

وهذا كلام دقيق يمهد به لرسم صـــورة تفاجىء القارئ لأنهـا تخالف ما علموه عنه ، وقد أوضحت سابقا أنه نفى عن نفسه تهمة الكبر وقسوة القلب وما اليها من صفات أعتقد الناس أنها موجودة فيه •

ومن اعترافاته أنه كان شيخا فى شبابه وشابا فى شيخوخته ، وقد دلل على القضية الأولى بأنه كان متحفظا مقتصدا فى شيم الفتيان وهى اللهو والغى والتمادى فى طلب المتعة والسرور ، وكان من نتيجة ذلك أن بلغ الستين وهو يعمل عمله كما كان فى العشرين والثلاثين والأربعين، وهذا من المقاييس الجديدة لدوام قوة الشباب ، وهذا الدليل هو نفسه دليل القضية الثانية فمن ابتعد عن العبث حفظ شبابه وعاش فىشيخوخة يمازجها الشباب (٢) •

وللعقاد اعترافات فلسفية عميقة منها أن فلسفة الحياة تســـتمد وجودها من ثلاثة منابع : الطبع الموروث ، وتجربة الحوادث والناس ، والدرس والاطلاع (٣) •

ولقد وضع العقاد هذه القاعدة ليفرع عنها فلسفته مع الناس مبينا أن أثر التجربة والدرس فيها أغلب من الطبيعة الموروثة ، وخلاصةهذه التحربة لخصها فى قوله : « لا ننتظر منهم كثيرا ، ولا نطمـــع منهم فى كثير ، والطمع فى انصاف الناس اذا كان فى الانصاف خســـارة لهم أو

---

(١) ص ١٩ وما بعدها من السابق •
(٢) ص ١١٣ وما بعدها من السابق •
(٣) ص ١٥٥ من السابق

معارضة لهواهم هو الكثير الذى ما بعده كثير فهم منصفون اذا لم يكلفهم الانصاف شيئا ، ولم يصدمهم فى هوى من أهوائهم ، ومنهم المنصف وان جنى عليه الانصاف ، ولكنه واحد فى ألوف .. لا تجده فى كل حين » (١) .

وقد فرع أيضا من قاعدته فلسفته فى العمل فلخصها فى أصول ثلاثة هى : قيمة العمل فيه ، وقيمة العمل فى بواعثه لا فى غاياته ، وأساس العمل كله نظام (٢) .

ومعنى هذا الكلام أن العمل قيمة محفوظة لا ينقصها قول منكر ولا يزيدها قول معترف .

وان الباعث أهم من الغاية ، فان أصدر الانسان عن باعث صحيح وفاتته الغاية هان عليه الأمر وبقيت قيمة العمل فيه محفوظة وبقى الشرف لمن دفعه الباعث الشريف .

وان أصعب الأعمال سهل مع النظام ، والعمل الكثير مستطاع اذا نيط كل عمل بوقته ، وينصح العقاد قارئه بقوله : « لا تغير نظاما لغير ضرورة » وبقوله « لا ترتبك » (٣) .

ووهذا الاعتراف أو هذه الفلسفة أو هذه النصائح تعبر عن اتجاه العقاد كما تفسر نجاحه فى أعماله وتوفيقه فيما تصدى له ، ولا ريب فى أنها اعترافات غاليه ومجدية .

وقبل أن ننهى كلامنا عن اعترافاته علينا أن نشير الى أن ما سقناه ليس كل ما اعترف لكنه يمثل أهمها فى نظرنا .

---

(١) ص ١٥٦ من السابق .
(٢) ص ١٥٦ وما بعدها من السابق .
(٣) ص ١٥٧ من السابق .

على أن هناك اعترافات أخرى ستذكر بعضها حينما نعالج المقياس الرابع من مقاييس الترجمة الذاتية أو السمة الرابعة من سماتها ، تلك السمة التى يقدم فيها العقاد خبراته النافعة للقارىء ، وان كنا قد أشرنا الى بعض هذه الخبرات .

— ٦ —

وضوح الغاية فى الترجمة الذاتية للعقاد

المقصود بوضوح الغاية للكاتب والقارىء مما أن يكون الكلام الذى يسوقه الكاتب مقصودا به أن يترجم لذاته ، وأن يكشف المستور المخبوء عنها ، وأن يزيح الستار عن المجهول فى حياته ، وأن يرسم صورة صادقة أمينة لما يعتلج فى فؤاده ، وما يختمر فى قلبه ، وما يراود ذهنه ، وأن يرسم الحياة من حوله ويصورها كما يراها للقارىء ، معبرا عن رأيه، معترفا بعلاقته بالناس مفضيا بأفكاره ومعتقداته .

ومقياس نجاحه فى ذلك أن يفهم عنه القارىء المثقف الواعى ، وأن يدرك غايته ، وأن يلتقى معه وهو يعى تماما أن هذا الكاتب يقدم له ترجمة ذاتية يرسم فيها حياته ويبرز فيها شخصيته ويعترف له بمكنون نفسه ومخبوء فؤاده ، ويفضى له برأيه فى الحياة والناس .

ومعنى هذا أن نجاح الكاتب لن يتحقق الا اذا كان واضحا فى ذلك معلنا غايته مصرحا للقارىء بأنه لا يقدم خيالا ، ولا يتحدث عن شخص آخر ، وانما يقدم حقيقة ويتحدث عن نفسه .

وعليه ألا يتوارى وراء ضمير الغائب فيقول : حدث منه كذا وكذا، بل يقول :حدث منى كذا وكذا ، وعليه أن يستعين بالتواريخ يذكرها مع كل حدث ، لأنه مؤرخ لحياته فى حقيقة الأمر ، وان كان ذلك من وجهة نظره هو ، وعليه أن يفصح عن غايته من كتابته ، وعليه أن يذكر أسماء من تعامل معهم كلما أمكن ذلك ، وعليه أن يقدم لذا مواقف ايجابية

كافية ، وعليه أن يقدم خبراته للقارىء ، وعليه أن يربط الأحداث ويعللها ويقدمها مقنعة ، وعليه أن يقدم نظراته التأملية الفلسفية ، والقضايا الاجتماعية الفكرية متعاطفة مع السياق العام لوقائع حياته .

هذه هى السمات التى تمثل وضوح الغاية ، فماذا فعل العقاد من ذلك ؟

لقد كان الفصل الأول ـ فى زمن الكباتة ـ مقالا بعنوان «بعد الأربعين» وصف فيه حياته النفسية وحالته الفكرية فى هذه السن ، وتحدث عن فلسفته بين الشباب والكهولة ، وعن تجاربه الشخصية بين العشرين والأربعين ، وقد نشرته الهلال فى أول يونيو سنة ١٩٣٣ م ، وكان هذا المقال هو أول مقال كتبه عن نفسه بأسلوبه العلمى التحليلى (١) .

وهو فى هذا المقال يكشف بوضوح أنه يترجم لنفسه فيتحدث بضمير المتكلم ولا يتوارى وراء ضمير الغائب فيقول : « فالذى أجزم به أن الزمن لا يغير عناصر النفس الأصيلة ولا يزيد عليها ولا ينقصها » (٢) .

ويقول : « أما فيما بعد فقد جنحت الى الاستقرار » (٣) ويقول : « ففى العشرين كنت كالمسافر الموعود فى رحلته بأمتع المنظار وأعجب المفاجآت ، فلا يزال يعرض عما يراه لأنه دون ما كان ينتظر ويتخيل ، ولا يزال مستهينا بالحاضر أملا فيما يليه . أو اننى كنت فى العشرين كالجالس على المائدة وهو يظن أن أطايب الطعام لا تزال مؤخرة محجوزة ، لأنه لم يجد أمامه طعاما يستحق الاقبال » (٤) .

---

(١) انظر ص ٥ من السابق ـ مقدمة طاهر الطناحى لكتاب (أنا) .
(٢) ص ١٧٨ من السابق . (٣) ص ١٧٩ من السابق .
(٤) ص ١٧٩ من السابق .

وهكذا نراه يتحدث بضمير المتكلم عن نفسه ، ونحس بأنه يرسم صورة حياته فى الماضى وهو فى العشرين كما يراها وهو فى الأربعين.

اما افصاحه عن غايته فيتضح من الفصل الأول من كتابه « أنا »، ففيه مقالات بعناوين «أنا» و «أبى» و «أمى» و «بلدتى» و «طفولتى»، ويتضح أيضا من الفصل الثانى من ذلك الكتاب ، ففيه مقالات بعناوين: «أساتذتى» و «ثلاثة أشياء جعلتنى كاتبا» و «هجرت وظائف الحكومة»، وهناك عناوين أخرى فى فصول أخرى مثل «الكتب المفضلة عندى» ، و «عرفت نفسى» و «تعلمت من أوقات الفراغ» و «أحرج ساعة فى حياتى» و «أجمل أيامى» و «ايمانى» و « فلسفتى فى الحياة » ، و «أصدقائى وأعدائى» و «أنا فى السجن» ، وهكذا فالعقاد يفصح عن هدفه وعن غايته ، فكثير من العناوين فيه اضافة الى ياء المتكلم ، وكثير منها فيه اسناد الى تاء المتكلم ، وبعضها مسند الى ضمير المتكلم «أنا» ظاهرا ومضمرا .

ولقد قدم العقاد كثيرا من خبراته وتجاربه للقارىء ، وكان ايجابيا فيها ، وسنتعرض لهذا فيما بعد .

بقى أمران مما ذكر التاريخ وذكر الأسماء ، ما موقف العقاد منهما وهو يؤرخ لحياته ؟

ان العقاد لم يذكر أسماء من تعامل معهم ، ومن له ذكريات معهم، ومن كانوا شركاء له فى بعض المواقف ، وكل الذى ذكره من ذلك أسماء بعض أسرته ، وأسماء بعض أساتذته ، وبعض أصدقاء والده ، ذكر اسم عمر أغا الشريف جد أمه لأبيها ، وبين أن أولاده هم محمد وعثمان ومصطفى وحورية وفاطمة (١) .

---

(١) ص ٣٥ من السابق .

وذكر اسم الشيخ محمد عبده (١) وسعد زغلول (٢) وجمال الدين الأفغانى وعبد الله نديم (٣) والنقراشى ومحمد حسن المحامى (٤) ، والقاضى أحمد الجوادى (٥) ، كما ذكر اسم اخوته أحمد وعبد اللطيف (٦) ، غير أنه لم يذكر اسم أمه أو شقيقته .

أما التواريخ فكان مقلا فيها ، وقد ذكر منها يوم مولده وهو ٢٨ يونيو سنة ١٨٨٩ م (٧) ، وذكر تاريخ التحاقه بوظائف الحكومة حينما كانت سنه خمس عشرة سنة ، وهذا التاريخ هو ١٩٠٤ م (٨) ، وذكر تاريخ القبض عليه فى قضية العيب فى الذات الملكية وهو ١٢ أكتوبر سنة ١٩٣٠ م (٩) .

ويلاحظ أنه مقل فى ذكر أسماء من تعامل معهم ، وكانت لهم صلة بحياته ، كما يلاحظ أيضا أنه مقل فى ذكر تواريخ ما ذكره من أحداث فى حياته وذكرياته .

ولعل السر فى ذلك يرجع الى أنه يكثر من التحليل ويقرر أصولا ، ولذلك لا تهمه هذه التواريخ ولا تلك الأسماء كثيرا ، مع أنها كانت لازمة فى بعض الأحيان ، لأنه انما يؤرخ لنفسه مع مجتمعه وعصره ، والدقة تقتضى أن يذكر التاريخ فى هذه المناسبات الهامة .

— ٧ —

تصوير الحياة وارتباطه بأحداثها

صور العقاد كثيرا من مظاهر الحياة حوله ، صور أحداثها وصلتها به وتأثيرها فيه وتكوينه ، وبين رأيه فيما حوله من هذه المظاهر وتلك الأحداث .

---

(١) ص ٤٣ من السابق
(٢) ص ٤٣ من السابق .
(٣) ص ٤٥ من السابق
(٤) ص ٣٤ من السابق .
(٥) ص ٣٠ من السابق
(٦) ص ٢٧ من السابق .
(٧) ص ٢٧ من السابق
(٨) ص ٢٨ من السابق
(٩) ص ١٢٨ من السابق

وفى أثناء حديثه عن العزلة والانطواء أرجع عزلته وانطواءه الى ثلاثة عوامل : هى الوراثة والطفولة وتجارب الحياة ، ولقد فسر ماحدث له فى طفولته مما ترتب عليه عزلته التى تعود عليها ، فبين أن الوباء قد نزل أسوان وكان فى السابعة من عمره فأقفرت المدينة من سكانها ومات كثيرون ورحل كثيرون وأغلقت بيوت وشوارع ، ومن حين لحين تعبر سفينة فى النيل شاردة لا تجرؤ على ملامسة الشاطئ خوفا من العدوى، ويصيح منها صائح كلما لمح على المورد زميلا له يسأله عن الموتى فى هذا اليوم فيجيبه : مصرى كامل أى مائة ميت أو نصف جنيه أى خمسون ، ولم يسمع ذكر للريال الا فى ختام الموسم الشنيع : موسم الحصـــاد ، ويقول : صورة لا أنساها ، ولا ألتفت اليها الا تمثلت وحشتها وبلواها، واليها ولا شك يرجع شىء من هذه الوحشـــــة التى تحبب الى الخلوة والانفـــراد » (١) .

ولا ريب فى أن العقاد صور الحياة من حوله وهو طفل فى السابعة، مبينا ما تركته حادثة منها من أثر فى نفسه وسلوكه طوال حيـــاته ، فهو قد ربط الحياة بنفسه وربط نفسه بالحياة .

ومن مظاهر تصويره للحياة أنه وصف أباه بالتقـــوى والصـــلاح ومداومة الصلاة وتلاوة القرآن والدعاء ، ولقد حدث بينه وبين والده بسبب الصلاة خلاف يوصف بالعصيان ، اذ أراد له أبوه أن يكون على طريقته فى الجد والصلاة فأمره أن يواظب ــ قبل العاشرة ــ على صلاة الفجر فى الشتاء ، فصبر عباس على هذا الجهد العنيف مرات ، ثم تمرد دفعة واحدة وقال لمن أيقظه : لست بالمستيقظ ولست بالمصلى اليوم ، ووثب الوالد الى عصاه قائلا : ماذا تقول ؟ أتقول : انك لا تصـــلى ،

---

(١) ص ٢٥ من السابق

فذهب الاصرار بعباس مذهب قائلا : نعم ، فصـــمت الوالد ولم يرد وأعرض عن ابنه لا يكلمه أياما حتى تناسيا هذا الخلاف (١) ..

والعقاد يصور حياة أسوان وسلوك الأسر فيها ، وأبوه واحـد منها ، وهو بصفة خاصة يصلى الصلوات الخمس فى أوقاتها ويأمر أولاده بها فى حرص شديد وان كانوا دون العاشرة وان كان ذلك فى الشـــتاء القارص ، ولقد بين العقاد أن موضع الشدة هنا فى التكليف ، بما هـو فوق الطاقة ، واذا كان الاسلام يقرر أن الأولاد يؤمرون بالصلاة لسبع ويضربون ان تركوها لعشر فان العقاد كان دون العاشرة .

وقد صور العقاد ما يشيع بين الناس من خوف الأعين ، وقـــد ذكر ذلك فى أثناء حديثه عن العيد فى طفولته فبعد المغرب من يوم الوقفة تدخل الجارات للتهنئة بالعيد ، « وقبيل المغرب تكون عملية التغيير وتوزيع الملابس الجديدة على صغار البيت على يد الوالدة فى نشاط وسرعة ، ولكن فى غضب وشدة وأحيانا فى سخط وصياح » :

تعال يا ولد .. اذهب يا مسخوط .. الحق ادخل الحمام .. مع تسبيحة أو اثنتين من قبيل : ان شاء الله ما لبست ... ان شـــاء الله ما استحميت (٢) .

ولقد خطر للعقاد أن يرفض الكسوة الجديدة لأنها مصحوبة بهذا السيل من الكلمات فرفضها وذهب صباح العيد الى جدته بثوبه القديم، ولمـــا استفسرت عن ذلك قائلة : « ألم يحضروا لكم ثيابا جـــديدة ؟ » فأجابها : بلى ... انهم قد أحضروها ، ولكنى أبيت أن آخذها من يد بنتك ... انها تشتمنا وتزعق فينا » .

---

(١) ص ٢٩ وما بعدها من السابق

(٢) ص ٤٧ من السابق

فابتسمت وسألت : «أكان أحد من الجيران عندكم فى تلك الساعة؟» فأجابها ظانا أنها تطلب شهودا كثيرات ... فلانة ... وفلانة ، فربتت الجدة على كتفه قائلة : « ان أمك لا تبغضك ولا تدعو عليك ، ولكنهـــا تصرف النظرة » .

وفهم العقاد بعد شرح قليل معنى « تصرف النظرة » ، فرؤية الأم فى مساء العيد بين أطفالها الفرحين المتهللين بالعيد تفتح أعين الحاسدات اللائى حرمن الأطفال ، وأمارات السخط تبطل الحسد ، فيسلم الصغار وأمهم من عيون الحاسدات (١) .

وعرف العقاد قيمة الأطفال وأدرك كيف أنهم زينة الحياة الدنيا .

ولقد صور العقاد أيضا ايمان بعض الناس بالخرافات وشفاعات الأولياء عن طريق حديثه عن أستاذه فى الحساب والهندسة ، وهـــذا الأستاذ كان يتردد على مسجد يعتكف فيه رجل من المشـــهورين بالولاية وصنع الكرامات ، ودعا الأستاذ تلاميذه لصلاة المغرب فى ذلك المسجد، للتبرك بالرجل الصالح وتلقى نصائحه قبيل الامتحان ، وأخذ الرجـــل ينصح التلاميذ واحدا واحدا ، وجاء دور العقاد فقال له : أما أنت فعليك باللغة الانجليزية ، وعجب العقاد وعجب زملاؤه لأنه كان متقدما فى هذه المـادة ، واجتمع التلاميذ مع أستاذهم فى الفصل بعد ذلك فقال الأستاذ للعقاد : « تذكر نصيحة الشيخ يا فلان » فرد العقاد : « ان الشيخ لم يقل شيئا » . قال الأستاذ : « كيف لم يقل شيئا ؟ .. ألم ينصـــحك بالاجتهاد فى اللغة الانجليزية ؟ » فرد العقاد : « فعلا..ولكنه سيظفر بالسمعة فى علم الغيب أيا كانت النتيجة ، فان نجحت قيل : انهـا بركة لنصحه ، وان أخفقت قيل : انه قد عرف هذا فحذرنى منـــه » فما زاد الأستاذ على أن قال : « دع عنك الضلال » هداك الله (٢) .

---

(١) انظر ص ٤٨ من السابق

(٢) انظر ص ٥٤ وما بعدها من السابق .

والموقف طريف ولا شك لكنه يبين النزعة العلقية التى اتجه اليها العقاد منذ صغره ، اذ لم يخضع للمألوف الشائع عند الناس بما فعل غيره ، وانما حكم عقله ووصل الى الحكم بأن هـذا الرجل مدع كى يستخدم ذكاءه لشهرته •

ومما له صلة بتصوير الحياة ما ذكره العقاد عن الشيخ أحمد الجداوى ، والجداوى أزهرى من أبناء أسوان ، تولى القضاء فى قنا، وادارة التعليم بالسودان ولما نشبت الفتنة المهدية بادرت الحكومة بابعاده الى أسوان عند استفحال الثورة مخافة عليه لأنه هجا المهدى ، والرجل مع أنه على النهج القديم ــ كان على دأب تلاميذ الأفغانى نهما بالمعرفة ، تعلم الانجليزية وهو كبير ، وتعلم الشعوذة وألعاب السينما وحيل الحواة حتى برع فيها ، وكان هذا النابغة الألمعى أوسع من لقيهم العقاد محفوظا فى الشعر والنثر ، وكان يطارح وحده خمسة أو ستة من القضاة والمدرسين والأدباء ، والمطارحة أن تأتى ببيت من الشعر فيأتى مطارحك ببيت يبدأ بحرف القافية فى البيت الأول ، وكان الشيخ يحفظ مقامات الحريرى والهمذانى ، وكان يلقيها مفسرة ، وله دعابات وأسحار يملأ مجالسه بها وبما يؤنس ويسر ويفيد (١) •

والدرس الذى يأخذه العقاد من هذه اللقطة فى حياته الأولى فى أسوان أن الجداوى ومدرسته قد حببا الى نفسه الأدب وحفظ الشعر ومطالعة الكتب ، كما حبب الجداوى اليه أن يعرف الشيخ محمد عبده ويدرك أنه أعظم رجل ظهر فى مصر وما جاورها منذ خمسة قرون ، ولقد كان أثره فى نفسه من أقوى الآثار (٢) •

---

(١) انظر ص ٥٦ وما بعدها من السابق •
(٢) انظر ص ٥٩ من السابق •

ولا ريب فى أن مجلس الشيخ أحمد الجداوى صورة من صور الحياة فى ذلك العصر ، ولا ريب فى أن آثاره على العقاد كانت قيمة ، ويكفى أنه لفت نظره للشيخ محمد عبده فراقه أن يقتدى به فى غيرته على الحق ونجدته للضعيف وقلة اكتراثه للقيل والقال ، ويعترف العقاد بأنه مدين له فى خطته السياسية الوطنية (١) .

— ٨ —

تقديم الخبرات النافعة للقارىء

اذا كان العقاد قد نجح فى تصوير بعض جوانب الحياة من حوله ، وربطها بداخله ونفسه ، وبين آثارها عليه وعلى آرائه واتجاهاته — فانه لم يكن يألو جهدا فى تقديمها مشفوعة بخبراته النافعة .

ولقد مر بنا موقفه من شدة أبيه الذى يوقظه لصلاة الفجر شتاء وهو دون العاشرة ، هذا الموقف هو التمرد ، ويبرز العقاد موضع العبرة فى ذلك فيقول : « ولكن الشدة صدمتنى لأنها كلفتنى ما لا أطيق قبل الأوان ، وجاءتنى فى موضع الاكراه والالزام ، وهى عبرة تساق للاستفادة منها فى هذا المقام » (٢) .

ومن الخبرات النافعة التى قدمها العقاد دور التشجيع عند الناشئة ، وكان للعقاد أستاذ فاضل هو الشيخ فخر الدين محمد ، وكان هذا الأستاذ يشجع الطلاب فى موضوعات الانشاء على المفاضلة بين شيئين كالعلم والمال ، أو الصيف والشتاء ، أو الحرب والسلام،وكان العقاد يختار أضعف الأمرين كالجهل مثلا ، وأستاذه يحمد له هذا الاختيار من قبيل مرانة القلم ، وكان يعرض كراسته على كبار الزوار كالشيخ محمد عبده الذى تصفح الكراسة وناقشه فى بعض مفاضلاتها

---

(١) انظر ص ٦٠ من السابق .
(٢) ص ٣١ من السابق .

ثم التفت الى الأستاذ قائلا : « ما أجدر هذا أن يكون كاتبا بعد » (١) .

والخبرة النافعة هنا أن تشجيع الشيخ فخر الدين محمود والامام الشيخ محمد عبده كان حافزا قويا للمضى فى هذا الطريق ، ويقول العقاد فى ذلك : « وقد يكون فى الاشارة اليها شىء يهم الناشىء المتطلع الى التأليف لأنه يعلم منه مبلغ فعل التشجيع حين يتلقاه الناشئون من ذوى مكانه فى العلم والحياة العامة » (٢) .

ومن الخبرات النافعة التى قدمها العقاد للقارىء : « أن كتابا تقرؤه ثلاث مرات أنفع من ثلاثة كتب تقرأ كلا منها مرة واحدة » (٣) .

ولقد قال العقاد ذلك تعقيبا على ندرة الكتب فى أسوان ، وقلتها فى مكتبات المدارس وعدم السماح للطلاب بالتردد عليها .

ومن هذه الخبرات التى ساقها العقاد لقارئه ما لخصه فى قوله : « كم من حاكم مظلوم ، وكم من محكوم ظالم » (٤) ، والقصة التى ساقها تأييدا لهذه الحكمة واحدة من ذكريات العيد فى أسوان أيام طفولته .

وملخص الحكاية أن أرجوحة أقيمت على ساحة قريبة من المنزل قبل وقفة العيد بأيام ، والأراجيح أحب ألاعيب العيد عند الأطفال ، ثم فوجىء الأطفال بحلها ورفعها من مكانها ، وقيل انها حلت ورفعت بأمر المأمور ، وشاعت التعليقات التى تصفه بالاستبداد والتحكم والفظاظة وحب النكد وقسوة القلب على المساكين الذين يقطع رزقهم .

---

(١) ص ٤٣ وما بعدها من السابق .
(٢) ص ٤٣ و ص ٦٠ من السابق
(٣) ص ٤٦ من السابق .
(٤) ص ٥١ من السابق

ويأتى المـأمور الى والد العقاد فى العيد فلم يخف الأطفال للقائه فهو رجل مستبد ظالم غليظ القلب ...

وكأن الرجل قد سيق الى التحدث عن قصة الأرجوحة فقال : انها مفككة اللوالب ، وأنه تهشم فيها ثلاثة أو أربعة أطفـال من البلدة التى كانت فيها قبل وصولها الى أسوان،ووجدت الورقة التى يحملها صاحبها وعليها تعهد منه بأن يصلح خللها قبل ادارتها ، لكنه لم يفعل ، ولم يكن من المـأمون أن تدار وهى بتلك الحال .. حقا لو أنصف الناس استراح القـاضى (١) .

ومما قدمه العقاد لقارئه ما مر بنا من حديثه عن أستاذه الشـيخ أحمد الجداوى الذى تعلم الانجليزية فى شيخوخته ، وتعلم الشـعوذة وألعاب الحواة ليفحمهم ، وكان مع ذلك مسامرا مسليا وعالمـا (٢) .

وموضع العبرة النافعة هنا أنه يطلب المعرفة صغيرا ، وكبـيرا ، ويطلب كل ما استطاع طلبه ولو لم يكن من سلكه ولا اتجاهه .

ومن الخبرات النافعة التى تمثل آراءه مقياس الكتاب المفيد،يقول فى ذلك : « أما مقياس الكتاب المفيد فانك تتبينه من كل ما يزيد معرفتك وقوتك على الادراك والعمل وتذوق الحياة ، فاذا وجدت ذلك فى كتاب ما كان جديرا بالعناية والتقدير ، فاننا لا نعرف الا لنعمل أو لنشعر ، أما المعرفة التى لا عمل وراءها ولا شعور فيها فخير منها عدمها » (٣) .

ولا ريب فى أن هذا رأى ناضج ونصيحة قيمة يقدمها العقـاد

---

(١) انظر ص ٥٠ وما بعدها من السابق .
(٢) انظر ص ٥٦ الى ص ٥٩ من السابق .
(٣) ص ٨٢ وما بعدها من السابق .

لن يقرءون ، فالعمل والشعور ان لم يتحققا من الكتاب فلا خير فيه ، ولا جدوى من قراءته وانفاق الوقت فى الاطلاع عليه •

ومن خبراته فلسفته فى الحياة مع الناس وفلسفته فى العمل ، وقد أشرت اليهما قبل ذلك ولكنى أسوق هنا صريح نصحه للناس مع الناس اذ يقول : « فهل هم أهل خير ؟ هل هم أهل شر ؟ •• ليبحث من أراد أن يبحث فى أمرهم على مهل ، ولكنه قادر على أن يستريح معهم فى خلال ذلك اذا لم يطمع فى خيرهم وهم أخيار ، ولم يحفل بشرهم وهم أشرار » (١) •

ويقول أيضا : « غناك فى نفسك ، وقيمتك فى عملك ، وبهواعثك أحرى بالعناية من غاياتك ، ولا تنتظر من الناس كثيرا » (٢) •

ويحس القارىء بأنه منهج صارم فى الحياة والعمل ، ولكنه يحس أيضا بأنه منهج جاد مثمر ، وحبذا لو نفذه الناس ، وهو نتيجة خبرة عملية وتأمل ، فلسفى ، ودرس واطلاع ، بالاضافة الى طبع العقاد الموروث من أبويه •

وأجمل ما قدمه العقاد منخبرته النافعةالقارىء حديثه عن الأيام الجميلة فى حياته قائلا عن اليوم الجميل : انه الذى تملك فيه دنيانا ولا تملكنا ، وهو اليوم الذى نقود فيه شهواتنا ولذاتنا ولا ننقاد لها صاغرين ، وهو اليوم الذى نظفر فيه بأنفسنا ونخرج فيه من محنة الشك ، وهو اليوم الذى نلقى فيه الثناء وراء ظهورنا ونقبل على العمل المجيد الذى لا يعلمه أحد ، وهو اليوم الذى يكاد يحشو جيوبى بالمال ويفرغ ضميرى من الكرامة فآثرت فيه فراغ اليدين على فراغ الضمير،

---

(١) ص ١٥٦ من السابق •
(٢) ص ١٥٨ من السابق •

وهو اليوم الذى احتجت فيه واحتاج مسكين فغلبت شح النفس ووجدت بين جوانحى طاقة الصبر على الضيق ولم أجد فيها طاقة الصبر على منظر العين الذليلة والقلب الكسير .

أجمل ما فى الحياة عند العقاد يوم تملك فيه نفسك فتعلم أنك ملكت الثروة التي لا يقاس بها ملك المال ولا ملك اللذة ولا ملك الثناء (١) .

ولا ريب فى أن العقاد المعتز بنفسه الحريص على كرامته غير غريب وخبراته مثالى فى خلقه وسلوكه ، وهو بهذا جدير بالتقدير والاكبار ، ولا ريب فى أن العقاد المعتز بنفسه الحريص على كرامته غير مرغوب منه أن يقول هذا الكلام الجميل عن أيامه الجميلة ، وأن يحرص هذا الحرص الرائع على المثل النبيلة ، وأن يقدم هذا النصح المثمر لمن يتهافتون على فتات اللذة وبريق الشهرة وسراب المال .

— ٩ —

مفاخر العقاد

لا بأس على الانسان أن يفخر فى بعض الأوقات اذا كان فخره مما يفخر به ، واذا لم يكن فخره سلاحا على الآخرين ، واذا لم يكن فخره بمناسبة وبدون مناسبة ، واذا كان فخره بعثا للمثل العليا وتذكيرا بالمبادىء السامية ، واذا كان فخره تعريفا بنفسه وتوضيحا لمبادئه، واذا لم يكن منا على أحد فالمن أذى خطير ، واذا كان معقولا غير مبالغ فيه .

هذا ما أعتقده فى الفخر ، وهو جانب من جوانب الاعتراف ، فليس الاعتراف مقصورا على الأمور السيئة ، وانما هو شامل للحسن والقبيح ، وما أكثر ما فى نفس الانسان من الحسن والقبيح ، واذا لم يوجد الانسان المعصوم من الخطأ — ما عدا من عصمهم الله سبحانه

---

(١) ص ١٦٩ وما بعدها من السابق

وتعالى وهم الأنبياء ــ فانه لا يوجد الانسان الخالى من نزعات الخير ، ولا سيما المفطورون قبل أن يؤثر عليهم المجتمع بضلاله وفساده .

والسؤال الآن .. هل افتخر العقاد وهو يترحم لذاته ؟ واذا كان قد افتخر فهل جاء فخره مقبولا بناء على ما ذكرنا من مقاييس قبـــول الفخر أو رفضه ؟

علينا أن نعرض شيئا من مفاخره ثم نحكم لها أو عليها بعد ذلك .

وأهم ما اقدمه العقاد من خبراته النافعة فى عمله الأدبى منهجه فى كتابة المقالات ومنهجه فى تأليف الكتب .

وقد أشرنا آنفا الى طريقته فى المقالات : فقلت : انه يبـدأ وفى ذهنه أصول المقال مرتبة ترتيبا منطقيا ، غير أنه فى أثناء الكتابة قـــد يضيف أو يحذف ، وهو يصحح مقاله قبل أن يسلمه للطباعة وقد يغـير منه ، وقلما يحدث ذلك فى جوهر الموضوع (١) .

أما منهجه فى تأليف الكتب فقائم على التقسيم والتنظيم ، اذ يتبين فى ذاكرته أقسامه الواسعة التى تحيط بأجزائه المتفرقة ، ثم يضـــع عنوانا لكل قسم على غلاف متوسط الحجم يتسع لعدة أغلفة أصغر منه ، ثم يراجع فى ذهنه مصادر الأخبار والآراء التى تتصل بالأقسام ، وقـد يضيف كتبا أخرى لم يكن اطلع عليها لكنها ذات صلة من قريب أو بعيد بالبحث ، ثم يأتى بعد ذلك دور التصفح والمراجعة لحصر المســائل المتفرقة وتوزيعها على أقسام الكتاب .

ومن عمله فى ذلك أيضا أنه يثبت رقم الصفحة اذا مرت به مسألة لها صلة بموضوعه ، ويعرفها بعنوانها المختصر ، ويلحق بها اشرة تفيد

---

(١) ص ٨٧ من السابق

موافقته عليها أو شكه فيها ، ثم تأتى بعـــد ذلك مرحلة التصـــفية والتنظيم (١) .

وهكذا يقدم لنا العقاد أسرار صنعته فى التأليف معترفا بهـا بكل صـدق وأمانة .

ومن مفاخرة ما سجله فى حديثه عن نفسه أيام طفولته الأولى فى أسوان ، يقول : « بدأت حياتى الأدبية وأنا فى التاسعة من عمـرى ، وكانت أولى قصيدة نظمتها فى حياتى هى قصيدة مدح العـلوم وقلت فيهـــا :

علم الحساب له مزايا جمة
وبه يزيد المرء فى العرفان
والنحو قنطرة العلوم جميعها
ومبين غامضها وخير لسـان
وكذلك الجرافيا هادية الفتى
لمســالك البلدان والوديان
واذا عرفت لسان قوم يا فتى
نلت الأمان به وأى أمان (٢)

ويقول بعد ذلك : « ثم كنت أول من كتب فى الصحف يشكو الظـلم الواقع على الموظفين (٣) ، ثم سئمت وظائف الحـكومة ، وجئت الى القاهرة (٤) وعملت بالصحافة ، وأخيرا عينت عضوا بمجلس الفنـون والآداب .. كما عينت بالمجمع اللغوى » (٥) .

---

(١) ص ٨٩ وما بعدها من السابق .
(٢) ص ٢٨ من السابق .
(٣) كان ذلك سنة ١٩٠٤ م وسنة خمس عشرة سنة .
(٤) بعد أن كانا فى الزقازيق .
(٥) ص ٢٨ من كتاب (أنا) .

ونظم الشعر ــ أى شعر ــ فى التاسعة شىء غريب ، وان كانت البيئة التى حكاها لنا فى بيته تجعله يبكر فى نظم الشعر .

أما شكاية الظلم الواقع على الموظفين فليس غريبا ، فالصحف قد تنشر ما يصلح للنشر ، وعدم خوفه من النشر غير غريب فقد كان زاهدا فى الوظيفة ، وتعيينه عضوا بمجلس الفنون والآداب ، وعضوا بالمجمع اللغوى يمثل الواقع ، وهو يذكره ليكمل الصورة فمقاله بعنوان «أنا» ولو لم يقل ذلك لكان مقصرا فى حديثه عن نفسه .

ويقول مفتخرا أو مغتبطا : « ومن السوابق التى أغتبط بها وأحمد الله عليها أننى كنت ــ فيما أرجح ــ أول موظف مصرى استقال من وظيفة حكومية بمحض اختياره ، يوم كانت الاستقالة من الوظيفة والانتحار فى طبقة واحدة من الغرابة وخطل الرأى عند الأكثرين ، بل ربما كانت حوادث الاستقالة أندر من حوادث الانتحار (١) .

وهذا فخر لا بأس به ولا عيب فيه لأنه يمثل اعترافا ، يسجل تحولا فى الحياة ، ولا بد أن يذكره صاحبه اكمالا للصورة .

ويفخر العقاد بأشياء كثيرة منها زهده فى البذخ وحطام الدنيا (٢)، ويفخر بأنه لا ياطلب الشهرة والخلود بثمن يهيض من كرامته (٣) ، وفخر بأنه مع تعبه فى تحصيل الأدب ، والثقافة لم يحقق خمس ما صبا اليه (٤) ويفخر بأنه كان شيخا فى شبابه (٥) ، وبأنه طاف العالم

---

(١) ص ٦٨ من السابق .
(٢) ص ١٩٧ من السابق .
(٣) السابق والصفحة .
(٤) ص ١٩٨ من السابق .
(٥) ص ١١٢ من السابق

من مكانه عن طريق الاطلاع (١) ، ويفخر بأنه عرف طريقه للنجاح برغبته الصادقة فى النجاح ، وبأنه يعنى بعمله لذاته ، وبأنه واثق فى نفسه مستخف بالعقبات (٢) ، ويفخر بأنه ذكى منذ صغره فبشرح قليل فهم عن جدته ما تقصده بصرف النظرة (٣) ، ويفخر بأنه جم التواضع مفرط فى الرحمة واللين ، ويفخر بأنه لا يعرف حقا لصنم المال وصنم العناوين العلمية والشارات الرسمية وصنم المناصب وصنم الألقاب ، ويقول فى ذلك : « سأكون غنيا عن الغنى ، ولى الكرامة التى أريدها » ، « وسيعرفنى العالم والأديب، وسأصعد فى هذه السماء صعودا حيث تزحف الألقاب والعناوين » (٤) .

وهكذا تأتى مغامره مؤيدة لاعتزازه ، مؤكدة لاحتفاظه بكرامته، مكملة لاعترافاته ، مصورة لحياته الاجتماعية والنفسية .

ونحن لا نرى فيها شيئا يمس الترجمة الذاتية الا ما أشرنا اليه سابقا من أنه فى سبيل حفاظه على كرامته يحاول أن يرسم صورة مثالية لنفسه يتغاضى فيها عن كثير من عيوبه ، ويبرز فيها كثيرا من أمجاده ومزاياه ومحاسنه ، وربما يبرر بعض تصرفاته وطباعه .

— ١٠ —

أسلوب العقاد فى الترجمة الذاتية

اذا كان الأسلوب هو الطريقة التى يختارها الكاتب للتعبير عن أفكاره وآرائه واحساساته ومشاعره فماذا كان أسلوب العقاد فى عرضه لترجمته الذاتية ؟

---

(١) ص ١٦٣ من السابق .
(٢) ص ١٠٤ وما بعدها من السابق .
(٣) ص ٤٨ من السابق .
(٤) ص ٢٣ من السابق .

من الناحية العامة نراه يختلف عمن ترجموا لحياتهم ترجمة ذاتية اذ اختار بعضهم الأسلوب الروائي ، واختار بعضهم صيغة المذكرات يصب فيها ذكرياته ، واختار بعضهم طريق الاعترافات مكتفين بالأهم والمهم منها ، أما كتابة العقاد عن نفسه فكان لها طابع جديد فهى ليست شخصية بحته ، ولا هى سردا خالصا لأحداث مرت به ، بل هى كل ذلك وينضاف اليه أنها كتابة باحث عالم مفكر اعتاد النظر فى مسائل العلم وقضايا الفكر والفن وجال فى شئون الفلسفة واستعان بعلم النفس والتربية والاجتماع ، وهو مع ذلك كله أديب كبير ذو سلطان فى امتلاك النفوس ، وجذب العقول ، بصدقه العاطفى ، وذهنه القوى ، وعبارته الجميلة ، وفنه المؤثر ، وثقافته المتنوعة ، وتأملاته العميقة ، وصوره الرائعة ، وعرضه الأخاذ ، ومقالاته المفيدة •

أما أسلوبه من الناحية الخاصة أو أسلوبه الأدبى فى هذه الترجمة فانه لم يخرج فيه عن أسلوبه فى كل كتاباته اذا استثنينا هذه السهولة التى اتسمت بها بعض مقالاته فى كتاب (أنا) ، ولعل هذه السهولة فى تلك المقالات انما ترجع الى عاملين : أولهما أنه كان ينشر هذه المقالات فى مجلات مثل (المصور) و (الاثنين) و (كل شىء) و (والقافلة) و (الهلال) ، وهى مجلات لكل قارىء وليست مقصورة على طائفة خاصة من الادباء أو المفكرين أو المثقفين ، وثانى هذين العاملين أنه يترجم لنفسه ، والترجمة الذاتية لا تشد الادباء فحسب ، وانما هى موضع اهتمام ودراسة من كثير من طوائف المفكرين والمثقفين كعلماء الاجتماع والنفس والصحفيين والمؤرخين وهواة القراءة والمتأدبين والناشئين •

وفيما عدا هذه الملحوظة فأسلوب العقاد فى هذه الترجمة هو أسلوبه فى كل كتاباته يتسم بهذه السمات :

١ ــ جزالة الأسلوب ، والجزالة قوة ، والقوة ليست هى الغرابة ونحت الألفاظ غير المألوفة ، وانما الجزالة القوية وسط بين هذه الغرابة وتلك السوقية العامية المبتذلة ، فليس عند العقاد كلمات وحشية وليس عنده كلمات مبتذلة ، على أنه قد يأتى ببعض الكلمات العامية اذا كان فى معرض الحكاية فقط كأن يحكى عن أمه وجـــاراتها (١) أو يحكى عن المسجونين فكاهاتهم (٢)

٢ ــ الشمول والاحاطة والاستقصاء من خصائص أسلوب العقاد فما يكاد يتعرض لفكرة أو جزئية الا ويوسعها بحثا ، ويحيط بها من كل جوانبها دراسة وتعليلا وتدليلا وهجوما ودفاعا وجدلا •

٣ ــ العمق من أهم سمات أسلوب العقاد ، وذهنه الحاد،وذاكرته القوية ، وثقافته الواسعة ، وطبيعته التأملية ، وتفرغه للبحث والأطلاع، كل هذا يعينه على التأمل العميق فيما يتصدى له من موضوعات •

٤ ــ والشىء البارز فى أسلوب العقاد قدرته على الاقناع فقـــد يعرض الفكرة لا يؤمن بها القارىء ولا يقتنع بها فاذا بالعقـــاد يجره قليلا قليلا ، ويفتح عليه ثغرة وراءها ثغرة ، حتى يحاصره ويستولى على لبه وسلاحه فى الانكار فما يلبث هذا المنكر الا أن يسلم ويســتسلم ، والعقاد قد ربى على هذا منذ موضوعات الانشاء أو المناظرات التى كان يطرحها الأستاذ عليهم وغالبا ما يختار الجانب الضعيف كالجهل مثـــلا فيدافع عنه ضد من اختار العلم (٣) ، وهذا بالاضافة الى ثقافته الرحبة واطلاعه الواسع ، وعقله الجبار •

٥ ــ أما أهم ســـمات أسلوبه فالسخرية يستعملها فى المواقف

---

(١) انظر ص ٤٧ من السابق •
(٢) انظر ص ١٢٧ من السابق •
(٣) انظر ص ٤٣ من السابق •

الحرجة ، وبالنقاش المرتفع ، يستعملها حاكيا أحاديث السجناء ، أو أحاديث المرح التى كانت تجرى فى أسوان مع أصدقاء أبيه ، أو فى الأحاديث الساذجة كما يحكى عن جدته وأمه •

على أن العقاد له فلسفة فى السخرية اذ يراها مقترنة بالجد والاهتمام فالحياة الشريفة مرعبة تلقاك منها المغضبات تغير ما تتوقعه وما نتمناه ، واذا بطل السخط وبطل معه السخر اللاذع فالحياة جثة مستباحة بلا عرض ولا كرامة (١) •

ويعد العقاد المرأة مقياسا لهذه الحياة قائلا : « لا تسخط عليها الا لأنك تكبرها ، ولا تترك السخط عليها والسخرية منها الا لأنها هينة عليك حقيرة فى عينيك » •

انزوجة تغضبك وتقيمك وتقعدك ولكن البغى المستباحة لا تثير منك غضبة ولا تكلفك حسابا ولا عناية » (٢) •

وبعد فقد عرف العقاد بنفسه وحياته وبيئته ومنابع فكره ، وبفلسفته وآرائه فيما حوله وقدم لنا تفسيرا مقنعا لأحاسيسه واتجاهاته ، وصحح لنا بعض المفاهيم عن سلوكه وأدبه وعلاقته بالآخرين •

الجذاب ، وأفكاره النيرة العميقة ، وتفسيراته الواسعة المستقصية جدير بالدراسة الأدبية والنفسية والاجتماعية •

دكتور/ عبد الفتاح على عفيفى الأسود
وكيل الكلية والأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد

ان كتاب « أنا » بأسلوبه العلمى التحليلى ، وعرضه الشائق

---

(١) انظر ص ٢٢٧ من السابق
(٢) السابق والصفحة